

علم اللغة وأهميته عند أبي حيان الأندلسي (ت745هـ) من خلال مقدمة تفسيره البحر المحيط

الباحث: عثمان أبو سعيد
طالب في سلك الدكتوراه
الفكر الإسلامي المغربي: الخصائص المنهجية والتحديات المعرفية
مختبر الدراسات والأبحاث الإسلامية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية
جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء
المملكة المغربية

الملخص:

إن أولية علم مفردات اللغة في تفسير القرآن الكريم مسألة أجمع عليها السلف والخلف، فاعتبروه لبنة أساسية في بناء العملية التفسيرية وآلية أساسية للتدبر، لأن فهم الكل فرع عن الفهم الصحيح لأجزائه، وبعض الجهل بالجزء يُفضي إلى زيادة جهل بالمجموع. وهذا المقال يكشف النقاب عن وعي أبي حيان بأهمية علم اللغة من خلال خطاب مقدمة البحر المحيط، وذلك من خلال عدّه أول العلوم التي يحتاجها المفسر للكلام المنزل، وللإحاطة بالموضوع انتظم المقال في مبحثين يتضمن كل منهما مطلبين، خصصت المبحث الأول للحديث عن مفهوم علم اللغة وأهميته في التفسير عامة وعند أبي حيان خاصة، وذلك بتتبع كلامه المنثور في ثنايا خطاب مقدمته، وجعلت المبحث الثاني للمصنفات اللغوية التي اعتبرها أبو حيان أفضل ما وضع في هذا العلم، وقد تنوعت هذه المصنفات بين معاجم عامة ومعاجم الأفعال، ولما كان من مقاصد التأليف تميم ناقص أتممت ما نقص من ذكر المصنفات التي اهتمت بحروف المعاني، وختمت هذا المبحث بالمحفوظات الشعرية التي خصها أبو حيان بالذكر. وختاماً، فلو كان تفسير أبي حيان بحر محيط تلاطمت أمواجه، فعلم اللغة مجدافٌ من المجاديف التي يحتاجها راكمه .

الكلمات المفتاحية: علم اللغة، أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط.

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، أما بعد؛

فإن وعي علماء الأمة الإسلامية بحاجة المسفر إلى علم مفردات اللغة مسألة أجمع عليها السلف والخلف، فابن عباس (ت68هـ) رضي الله عنهما يتوسل بأشعار العرب ولغاتها لفهم القرآن الكريم¹، وبعده التابعي الجليل مجاهد (ت104هـ) يُحَرِّم التكلم في القرآن الكريم دون علم بلغات العرب²، وإمام دار الهجرة مالك بن أنس (ت179هـ) يتوعد من يفسر القرآن وهو جاهل باللغة بأشد التنكيل³، والراغب الأصفهاني (ت502هـ) يجعل علم اللغة أول ما يحتاجه المقبل على تفسير كلام الحق سبحانه⁴، باعتباره أول لبنة في بناء العملية التفسيرية، وعبد الحميد الفراهي (ت1349هـ) يعلل ذلك بقوله: «لا يخفى أن المعرفة بالألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم الكلام. وبعض الجهل بالجزء يُفضي إلى زيادة جهل بالمجموع. وإنما يسلم المرء عن الخطأ إذا سد جميع أبوابه. فمن لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أغلق عليه باب التدبر»⁵

ولذلك فأبو حيان وفق في اعتبار علم اللغة أول الوجوه التي يحتاجها المفسر لكلام المولى عز وجل؛ قال في مقدمة البحر المحيط: «وإذ قد جر الكلام إلى هذا فلنذكر ما يحتاج إليه علم التفسير من العلوم على الاختصار وننبه على أحسن الموضوعات - يقصد بها المؤلفات - التي في تلك العلوم المحتاج إليها فيه فنقول: النظر في تفسير كتاب الله تعالى يكون من وجوه: الوجه الأول: عِلْمُ اللغة اسما وفعلا وحرفا...»⁶

وأتناول هذا المقال في مبحثين؛ أجعل الأول مدخلا لعلم اللغة وأهميته عند أبي حيان، ثم أخصص المبحث الثاني للمؤلفات اللغوية التي ذكرت في مقدمة البحر المحيط.

¹ روى الأثر أبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء، ج 1 ص 62.

² ينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ج 1 ص 292.

³ ينظر: شعب الإيمان، للبيهقي، ج 2 ص 426.

⁴ ينظر: مقدمة جامع التفاسير، مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة، ص 94، والمفردات في غريب القرآن، ص 54.

⁵ مفردات القرآن - نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية-، لعبد الحميد الفراهي، ص 95.

⁶ البحر المحيط، لأبي حيان ج 1 ص 12.

المبحث الأول: مدخل إلى علم اللغة في تفسير "البحر المحيط"

عتبة أي علم من العلوم والمدخل إليه هو معرفة مفهومه، فالحكم عن الشيء فرع عن تصوره، وعليه أعرف مفهوم علم اللغة، ثم أبين أهميته في التفسير عند أبي حيان.

المطلب الأول: تعريف علم اللغة

اللغة لغة: ليس بخاف أن اللغة من أهم آليات ووسائل التواصل بين الأفراد والجماعات، وقد تعددت التعريفات اللغوية التي سعى العلماء من خلالها إلى ضبط أصلها وماهيتها. نص ابن فارس (395هـ) على أن الجذر اللغوي اللّامُ وَالْعَيْنُ وَالْحَرْفُ المَعْتَلُّ أصلان صحيحان يحملان معنيان: الأول يدل على ما لا يُعتد به كاللغو، والثاني يشير إلى اللهج بالأمر ومنه اشتقاق اللّغة، لأن صاحبها يلهج بها¹.

وقبله أبرز ابن جني (392هـ) الوظيفة الأساسية للغة كونها أداة للتواصل والتعبير عن الأغراض فهي "أصوات يُعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"، معتبرا أن تصريفها فُعلة من الفعل "لغوت"، أي "تكلمت"².

وأشار أبو حيان إلى اشتقاق اللغة في شرح مفردة اللغو من قوله تعالى: ﴿لَا يُوَاحِدُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ

وَجِ أَيْمَنِكُمْ وَلَكِنْ يُوَاحِدُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ فُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

[سورة البقرة آية 223]، قال: «اللَّغْوُ: ما يسبق به اللسان من غير قصد، قاله الفراء، ويُقال: لَغَا يَلْغُو لَغْوًا وَلَغَى يَلْغِي لَغَاءً... وقال ابن الأنباري: اللغو عند العرب ما يطرح من الكلام استغناء عنه، ويقال: هو ما لا يفهم لفظه.... ويقال: لغا بالأمر لهج به يلغا، ويقال: اشتق من هذا اللغة»³.

¹ ينظر: معجم مقاييس اللغة، كتاب اللام باب اللام والغين وما يفتلها

² الخصائص: ج 1 ص 34.

³ البحر المحيط ج 4 ص 190 و 191.

- علم اللغة اصطلاحاً:

لم يُسَطَّر أبو حيان تعريفاً لعلم اللغة في فاتحة كلامه عليه ضمن مقدمة تفسيره قال: «الوجه الأول: عِلْمُ اللغة اسماً وفعلاً وحرفاً. الحروف لقلَّتْها تكلم على معانيها النحاة، فيؤخذ ذلك من كتبهم، وأما الأسماء والأفعال فيؤخذ ذلك من كتب اللغة»¹.

بل اكتفى بذكر تقسيم كلمات اللغة العربية التقسيم الثلاثي المشهور، اسم وفعل وحرف، مشيراً إلى مضان معاني هذه الكلمات، حيث وضح أن الحروف لقلَّتْها تُؤخذ من كتب النحاة، وأما الأسماء والأفعال فمضائُها كتب اللغة - أي المعاجم-، والتي سيذكر طائفة منها بعد.

ولكن يمكن استنباط ذلك من خلال شرحه لمفهوم التفسير، فبعد أن عرف التفسير بأنه: «علم يبحث فيه عن كيفية النطق بالألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمتات لذلك»². قال: «وقولنا ومدلولاتها: أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم»³. إذًا، علم اللغة عند أبي حيان هو: العلم الذي يبحث في مدلولات الألفاظ القرآنية لفهم معانيها.

وعرفه ابن خلدون (ت808هـ) بشكل أعمّ بقوله: «علم اللغة هو بيان الموضوعات اللغوية»⁴. أي الكلمات والمفردات التي وضعت لتشير إلى معاني محددة في اللغة. من حيث دلالتها، ونشأتها، واستخدامها في اللغة.

ومن أوسع أشمل التعاريف ما سطره طاش كبري زاده (ت968هـ) بقوله: «علم اللغة هو علم باحث عن مدلولات جواهر المفردات وهيئاتها الجزئية، التي وضعت تلك الجواهر معها لتلك المدلولات بالوضع الشخصي، وعما حصل من تركيب كل جوهر وهيئة، من حيث الوضع والدلالة على المعاني الجزئية»⁵. حيث ركز على دراسة مدلولات المفردات وصيغها وهيئاتها التي تأتي بها على ما وضعت له بشكل محدد ومستقل عن غيرها.

¹ البحر المحيط، لأبي حيان، ج 1 ص 12.

² البحر المحيط، ج 1 ص 36.

³ المصدر نفسه، ج 1 ص 36.

⁴ مقدمة ابن خلدون، ج 2: ص 370.

⁵ مفتاح السعادة ومصباح السيادة، لأحمد بن مصطفى المشهور بطاش كبري زاده، ص 10.

المطلب الثاني: أهمية علم اللغة في تفسير أبي حيان الأندلسي

حَفَّ اللَّهُ سبحانه كتابه بكل أسباب التشريف، حيث اختار له أمين السماء سفيرا،

وأمين الأرض مبلغا، وأفضل بقاع الأرض ظرفا مكانا، وأنزله في خير زمان شهرا وليلية، فلا يتصور تخلف لسانه عن هذا التشريف، واستثناؤه من هذه الأفضلية، كيف والألفاظ قوالب المعاني، فدل ذلك على أن اللسان العربي أفضل الألسن ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ

اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة القصص آية 68].

فكان إدراك علوم اللسان العربي سبب قوي لفهم كلام الله تعالى، ومعلوم أن إدراك الكل متوقف على إدراك الجزء، لأجل ذلك حاز علم اللغة -أي دلالة مفرداتها- الأولوية في أهمية العلوم التفسيرية، يقول الراغب الأصفهاني: «وذكرت أن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللين»¹.

وأهمية علم اللغة برزت منذ عصر الصحابة رضوان الله عليه، فحَبَّرَ الأمة ابن عباس رضي الله عنهما يَسْتَغْلِقُ عليه اللفظ فيلتمسه من كلام العرب، يقول: «كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيَان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها»².

وعلم اللغة هو حجة المفسر والمحجَّة التي ينبغي له أن يسكلها في تفسيره، وبرهان ذلك سؤال نافع بن الأزرق «هل تعرف العرب ذلك؟» عقب كل تفسير من ابن عباس، وإذعانه له وقبول تفسيره³.

¹ المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ص54.

² جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي الطبري، ج9 ص175.

³ أخرج الخليل الطبراني في المعجم الكبير ضمن "مناقب عبد الله بن عباس وأخباره"، رقم: 10597، ج10 ص248. سأخص مسائل ابن الأزرق بمزيد إيضاح ضمن فرع: محفوظات أبي حيان الشعرية.

وقد سلك علماء الأمة منهج ابن عباس رضي الله عنهما في التفسير اللغوي للقرآن الكريم، فانبتق عن ذلك صنوف من التأليف لها اهتمام بالجانب اللغوي للقرآن، منها معاني القرآن الكريم¹، وغريبه²، ووجوهه ونظائره³، ولغاته⁴. وهذا دليل صارخ على الوعي التام بأولوية دلالة الألفاظ في عملية فهم القرآن وتفسيره.

بل إن الفهم السليم لمفردات القرآن الكريم، وحراستها من اقتحام الخطأ فيها، يعدُّ السبب الأول الذي همَّ علماء اللغة⁵، فأجمعوا عزائمهم وألفوا المعاجم، يقول ابن خلدون: « فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمّر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين»⁶

وعلم اللغة ليس من ملح علوم التفسير، بل هو أصل ومعرفة واجبة⁷ على كل من تاقّت نفسه إلى فهم كلام الله تعالى، والترجّل فيه من شأنه إفساد المعنى، وتفسير القرآن على غير المراد، ولذلك تشدّد العلماء على من فسر القرآن وهو جاهل بلغة العرب، يقول الإمام مالك: « لا أوتي برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب إلا جعلته نكالا»⁸

والفيرزآبادي بعد أن نبه على أن العلم منه أصول وفروع، طرائق وشعاب، أكد أن علم اللغة هو الأصل الذي يرجع إليه الجميع، وبين حاجة علماء الشرع إليه، يقول: « وإن بيان الشريعة لما كان مصدره عن لسان العرب، وكان العمل بموجبه لا يصح إلا بإحكام العلم بمقدمته، وجب على روام العلم وطلاب الأثر،

¹ علم معاني القرآن: يجمع بين البيان اللغوي لألفاظ القرآن وأساليب العربية الواردة فيه، ينظر: الفهرست، لابن النديم، ص53، وكشف الظنون، لحاجي خليفة، ج2 ص1730، وأنواع التّصنيف المتعلّقة بتفسير القرآن الكريم، لمساعد الطيار، ص55.

² علم غريب القرآن: وهو جزء من معاني القرآن غير أنه يقتصر على الألفاظ - سواء الغريبة أو غيرها - دون الأساليب، ينظر: الفهرست، لابن النديم، ص54، وكشف الظنون، لحاجي خليفة، ج2 ص1203، والمعجم العربي نشأته وتطوره، لحسن نصار، ج1 ص33 أنواع التّصنيف المتعلّقة بتفسير القرآن الكريم، لمساعد الطيار، ص60.

³ عرفه الزركشي بـ: « الوجوه اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان كلفظ الأمة والنظائر كالألفاظ المتواطئة » البرهان في علوم القرآن، ج1 ص102، ينظر: مفتاح السعادة، لطايش كبري زاده، وكشف الظنون، لحاجي خليفة، وأنواع التّصنيف المتعلّقة بتفسير القرآن الكريم، لمساعد الطيار، ص55

⁴ لغات القرآن فن يبحث فيه عنّا تضمنه القرآن من لغات القبائل العربية، والألفاظ المعربة والدخيلة من اللغات الأخرى على خلاف في هذه المسألة الأخيرة، وهو بحث طرقه العلماء منذ زمن قديم، احتفظت المكتبة برسالة منسوبة لابن عباس فيه. ينظر: الفهرست، لابن النديم، ص54، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ج2 ص106 و125 المعجم العربي نشأته وتطوره، لحسين نصار، ج1 ص68.

⁵ ينظر: مقدمة الصحاح، للجوهري، بقلم المحقق أحمد عبد الغفور عطار، ص42.

⁶ المقدمة، لابن خلدون، ج1 ص756.

⁷ قال ابن فارس: « إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب، حتى لا غناء بأحد منهم عنه، وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عربي. فمن أراد معرفة ما في كتاب الله جل وعز، وما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل كلمة غريبة أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بدا» الصاحي، ص50.

⁸ شعب الإيمان، للبيهقي، ج2 ص426.

أن يجعلوا عظم اجتهداهم واعتمادهم، وأن يصرفوا جل عنايتهم في ارتيادهم إلى علم اللغة والمعرفة بوجوهها»¹.

إن الدارس للبحر المحيط تتجلى له أهمية علم اللغة عند أبي حيان تنظيراً من خلال مقدمته وتطبيقاً في ثنايا تفسيره، ويمكن إجمال أهمية هذا العلم عنده من خلال النقاط الآتية:

- علم اللغة أول العلوم التي يحتاج إليها المفسر

إن جعل علم اللغة أول العلوم التي يحتاجها المفسر في تناوله لأي كتاب لهو دليل قاطع وبيان ناصع على أهمية هذا العلم الشريف، يقول أبو حيان: «النظر في تفسير كتاب الله تعالى يكون من وجوه: الوجه الأول: عِلْمُ اللغة اسماً وفعلاً وحرفاً»²، وهو ليس بدعا في هذا الصنيع، فالراغب الأصفهاني في مقدمته أشار إلى أولية علم اللغة في التفسير³.

- علم اللغة أول خطواته المنهجية في التفسير

أوضح أبو حيان في مقدمة البحر معالم منهجه الذي سيسلكه فيه، فهو يشرح أولاً المفردات لفظةً لفظةً فيما يحتاج إليه من اللغة قبل تركيبها، مشيراً إلى معانيها في أول موضع ذكرت فيه لينظر ما يناسبها من معنى بعد، سواء في ذلك الحروف⁴ أو الأسماء⁵ أو الأفعال⁶. فهو يقدم شرح المفردات قبل الشروع في التفسير باعتبار معرفة دلالة المفردة أساس فهم التركيب وإدراك المعنى.

- علم اللغة داخل في ماهية تعريف التفسير

يشير إلى ذلك في تعريفه للتفسير قال: «التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك»⁷.

¹ القاموس المحيط، للفيروزآبادي، ج 1 ص 26

² البحر المحيط، لأبي حيان ج 1 ص 12.

³ مقدمة جامع التفاسير، مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة، ص 94

⁴ ينظر على سبيل التمثيل تفسيره لفظ "الله" من سورة الفاتحة: «اللام: للملك وشبهه، ولتتمليك وشبهه، وللاستحقاق، وللنسب، وللتعليل، وللتبليغ، وللتعجب، وللتبيين، وللضرورة، وللظرفية بمعنى في أو عند أو بعد، وللاتتهاء، وللاستعلاء...» البحر المحيط، ج 1 ص 51.

⁵ قال أبو حيان عند تناوله مفرد لفظ "الرب": «السيد، والمالك، والثابت، والمعبود، والمصلح، وزاد بعضهم بمعنى الصاحب... وبعضهم بمعنى الخالق» البحر المحيط، ج 1 ص 51.

⁶ قال في شرح مفرد لفظ "اهدنا": «اهدنا، الهداية: الإرشاد والدلالة والتقدم... أو التبيين... أو الإلهام... أو الدعاء» المصدر نفسه، ج 1 ص 51.

⁷ المصدر نفسه، ج 1 ص 36.

وشرح هذا التعريف وأن قوله مدلولاتها أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم والمشتغل به¹.

لذا، فإن إتقان علم مفردات اللغة عند أبي حيان يعد ركناً أساسياً لفهم النصوص القرآنية وتفسيرها بشكل دقيق.

ووجب التنبيه أن أبا حيان اهتم بعلم اللغة خارج البحر المحيط، وذلك من خلال كتابه " تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب "، وهو كتاب في غريب القرآن، رام فيه الاختصار، والغريب عند أبي حيان هو أحد قسمي لغات القرآن²، فهو فن لا يدركه إلى من له اطلاع واسع، واستبحار في اللغة العربية، وقد رتبته على حروف المعجم، معتبرا في ذلك الحروف الأصلية لا الزائدة مقتصرًا في ذلك على شرح الكلمة الواقعة في القرآن الكريم³.

فالتزم أبو حيان بشريعة الاختصار فيه، فجعله عار من الشواهد والتمثيل والاختلافات، بخلاف البحر المحيط، وإيضاحا للمقال أمثل بلفظ " الدين "، قال في تحفة الأريب: « دين: الدين: ما يتدين به الرجل من إسلام وغيره، أو الطاعة أو العادة أو الجزاء أو الحساب أو السلطان. لمدينون: مجزيون »⁴. يقارن هذا مع صنيعه في البحر حيث أتى بشواهد أو أمثلة لكل معنى من المعاني المذكورة، وأضاف أخرى وهي القضاء، والقهر، والسياسة، والعمل، والحال⁵. وهذا دليل على أن في أعماق البحر المحيط درر وثررة لغوية كبيرة، لا يجمل بمن قصد تفسير كلام الله عز وجل الإعراض عنها.

المبحث الثاني: المصادر اللغوية التي ذكرها أبو حيان في مقدمته

شرع أبو حيان في ذكر أهم المؤلفات في علم اللغة التي يحتاجها المفسر سيرا على نهجه الذي رسمه، وقد تنوعت المصنفات اللغوية المذكورة بين معاجم عامة، ومعاجم الأفعال، مع تلميح بمضمان معاني الحروف، وعدَّ لبعض محفوظاته الشخصية.

¹ المصدر نفسه، ج 1 ص 36.

² يقول أبو حيان: « لغات القرآن العزيز على قسمين: قسم يكاد يشترك في معناه عامة المستعربة وخاصتهم، كمدلول السماء والأرض وفوق وتحت، وقسم يختص بمعرفته من له اطلاع وتبحر في اللغة العربية وهو الذي صنف أكثر الناس فيه وسموه: غريب القرآن » تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، ص 40.

³ المصدر نفسه، ص 40.

⁴ المصدر نفسه، ص 125 و 126.

⁵ البحر المحيط، لأبي حيان، ج 2 ص 62 و 63 و 64.

ولاشك أن الاختيار دليل على حسن الاطلاع ودقة الانتقاء. ولعل من أدلة توفيق أبي حيان في حسن انتقائه أن تنقل كلامه بعده أحد أهم مصادر علوم القرآن، فعند الحديث عن النوع الثامن عشر: معرفة غريبه- أي القرآن الكريم- من كتاب البرهان في علوم القرآن، نقل الزركشي (794هـ) كلام أبي حيان نصا دون إحالة أو إشارة¹. وكذلك فعل طاش كبري زاده في علم معرفة غريب القرآن الذي اعتبره من فروع علم التفسير².

وسأتناول هذا المبحث في مطلبين، الأول خاص بالمؤلفات اللغوية التي ذكرها أبو حيان، والثاني بمحفوظاته الشخصية، وبيانا لما أجمله بخصوص حروف المعاني، ذكرت أهم المصنفات التي عنيت بهذا النوع، مع تقديم لإسهامات أبي حيان.

الفرع الأول: المؤلفات اللغوية

1- كتب حروف المعاني

بدأ أبو حيان حديثه عن المؤلفات تبعا للتقسيم الثلاثي للكلمة: اسما وفعلا وحرفا، فقال: «الحروف لقلتها تكلم على معانيها النحاة، فيؤخذ ذلك من كتبهم، وأما الأسماء والأفعال فيؤخذ ذلك من كتب اللغة»³. وسأذكر في هذا الفرع أهم المؤلفات النحوية التي اهتمت بحروف المعاني. ممهدا بمسائل عن لي أهميتها:

أ- حروف المعاني عند أبي حيان

تُقسّم الحروف إلى قسمين كبيرين؛ الأول: حروف الهجاء⁴ وتسمى كذلك حروف المعجم وحروف المباني. والثاني: حروف المعاني. وقد أشبع أبو حيان الحروف بقسميها بحثا في مؤلفاته النحوية، فدرس حروف الهجاء عددا ومخرجا وصفة⁵.

وأما حروف المعاني فقد أتى فيها بالغاية، وهي المقصودة في كلامه في مقدمة البحر المحيط، ودليل ذلك الباب الذي عقده في ارتشاف الضرب ووسمه بـ: «باب حروف المعاني وحصرها: الحرف الذي هو

¹ ينظر البرهان في علوم القرآن، ج 1 ص 394 و 395 و 396.

² ينظر: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، لطاش كبري زاده، ج 2 ص 372.

³ البحر المحيط، لأبي حيان، ج 1 ص 12.

⁴ ووجه تسميته أنها من التهجي أي التعدد: هجي الحروف إذا عددها. ينظر: معجم المعاني في القرآن الكريم، محمد حسن شريف، ص "ف".

⁵ ينظر: ارتشاف الضرب من كلام العرب في حديثه عن الجملة الأولى في الأحكام الإفرادية، ج 1 من ص: 5 إلى 21، والنكت الحسان في شرح غاية الإحسان، ص 270، و من ص 275 إلى ص 286.

قسيم الاسم والفعل: رسم كلمة تدل على معنى في غيرها فقط»¹. ووجه الاستدلال بـيّن كونه جعل حرف المعنى قسيم الاسم والفعل ودل بالمخالفة أن حرف المبني ليس مقصوده.

وكدأبه في تناول الحدود قام بشرح قيود التعريف فقال: «فكلمة: جنس يشمل الاسم والفعل والحرف، وتدل على معنى في غيرها: فصل يخرج به أكثر الأسماء، والفعل. وفقط: يخرج به ما دل على معنى في نفسه، وفي غيره وذلك أسماء الشرط، وأسماء الاستفهام»².

وثنى بتقسيم حروف المعاني بحسب بنيتها³ إلى قسمين كبيرين بسيطة ومركبة، وذكر أنواع البسيطة وهي: الأحادية⁴، والثنائية⁵، والثلاثية⁶، والرابعة⁷، والخماسية⁸. ثم المركبة⁹. وعدّد حروف كل نوع من الأنواع المذكورة. لينتقل بعد ذلك لمعانيها مشيراً أن أغلبها سبق تناوله في أبواب مضت مثل: حروف العطف، و النداء، و حروف الجر، والنواصب، والجوازم، فلا يكرر الحديث عنها كونه بحثها من حيث ذاتها ومعناها مورداً للخلاف فيها. وإنما بحث ما لم تسبق الإشارة إليه أو لم يشبع الكلام فيه¹⁰.

أما في النكت الحسان شرح غاية الإحسان فقد عقد باباً لعمل الحروف ومعانيها، قسمها باعتبار العمل إلى مهمل ومعمل وشرح كل منها. ثم ذكر ألقاب الحروف أي معانيها ووظائفها العامة، والملاحظة العامة على عمله أنه يذكر ألقاب الحروف ولا يتناول التعريف بها، ثم يذكر ما يندرج تحثها من الحروف مع ذكر

¹ ارتشاف الضرب من كلام العرب، ج 5 ص 2363.

² المصدر نفسه، ج 5 ص 2363. ينظر كذلك التذيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل ومناقشته لتعريف ابن مالك للحرف ج 1 ص 49 و 50 و 51.

³ تقسم حروف المعاني بحسب عدة اعتبارات؛ منها : 1- باعتبار البنية : أي يبينها وعدد حروفها وهي التي قسم الحروف حسبها أبو حيان في ارتشاف الضرب. 2- باعتبار عملها: أي إما أن تكون عاملة أو مهملة 3- باعتبار وظائفها الإجمالية: وهي أقسام كثر: مثل حروف العطف، والجر، والاستثناء... 4- باعتبار وظيفتها التفصيلية أو معناها : وهي كثيرة منها الابتداء والإخبار و الاستئناف والاستدراك، والاستعانة ... ينظر: معجم حروف المعاني في القرآن الكريم، لمحمد حسن الشريف، التمهيد ج 1 ص (ر- ش)

⁴ وذكر منها: الواو، والفاء، والباء، والتاء، واللام، والكاف، والهمزة، والسين، و (م)، و (م).

⁵ وذكر منها: والثاني: أم، وأو، وب، و (لا)، وما، وإن، وأن، ولن، ومن، وعن، وفي، ومنذ، ولو، ولم، وأي، وآ، ويا، و (وا)، وقد، وهل، وها، وكي، ومع، و (أل).

⁶ وذكر منها: : على، وإلى، ورب، وعدا، وخلا، ومنذ، وإن، وأن، وليت، وسوف، وأي، وأيا، وهيا، وإذن، وألا، وأجل، وبجل، ونعم، وبلى، وثم.

⁷ وذكر منها: حتى، وحاشا، وإلا، وإما، وأما، ولعل، وكلا

⁸ وذكر حرفا واحدا هو لكنّ.

⁹ وذكر منها : كأن، ولولا، لوما، وغلا، وهلا، و (إذما)، و (لما)، و (ربما).

¹⁰ فبحث: قد، وهل، والهمزة، وحروف التنبيه: ها، ويا، وألا، وأما، وحروف الجواب: أجل، وبجل، ونعم، وبلى، وأي، وإنّ، وجير، وكلا، وأدوات التحضيض: لولا، ولوما، وهلا، وألا. ينظر ارتشاف الضرب، ج 5 ص 2363- 2371.

بعض الشواهد التي أغلبها إما من القرآن الكريم أو أمثلة صناعية من عنده، ويذكر الخلاف في الحروف ويناقشه أحيانا ويعرض عنه أخرى¹.

ومن مضان كلام أبي حيان عن حروف المعاني والتي تعتبر ذخيرة لكل باحث عنها شرحه على كتاب التسهيل لابن مالك (ت672هـ) الموسوم بـ: "التذليل والتكميل في شرح كتاب التسهيل"².

ب- أهم المؤلفات في حروف المعاني

لا جرم أن يهتم النحاة وعلماء العربية بحروف المعاني اهتمام بالغاً، وعلة ذلك أنها كثيرة الدوران في كلام العرب، يقف فهم التركيب وسلامته عليها، فلا تجد كتاب من كتب النحو إلى واهتم بها، بداية مع سيبويه في الكتاب ومن جاء بعده، مثل المبرد في المقتضب وابن مالك في كتبه المنثورة والمنظومة. ولم يقف بحث حروف المعاني عند هذا المنهج الذي يدرسها داخل مصنفات نحوية عامة. وإنما برز منهج آخر أفرداها بالتصنيف والتأليف، وقد احتفظت المكتبة بنماذج مثل "منازل الحروف" للرماني (ت384هـ)، و"الأزھية في علم الحروف"، لعلي الهروي (ت415هـ)، وغيرها من الدراسات التي أفردت حروف المعاني، وتبقى أهم مصنفات حروف المعاني التي لقيت قبولا بين الدارسين ثلاثة:

- رصف المباني في شروح حروف المعاني، للمالقي (ت702هـ)

ومؤلفه أحمد بن عبد النور بن أحمد بن راشد³، وقد صنف كتابه رغبة في شرح معاني الحروف، ورصف ما تناثر في كتب النحاة، فوسمه بـ "رصف المباني في شرح حروف المعاني"، ليوافق اسمه معناه، ويكون لفظه دال على فحواه، وقد رتبته على حروف المعجم تسهيلا على طلابه، ورام بكتابه تحقيق مقصدين؛ المقصد الأول: الكلام في حروف المعاني على الجملة، وجاء في ثلاثة فصول. والمقصد الثاني: شرح ما ذكره من الحروف جملة، بحيث يتناول الحروف التي وصلت عنده خمسة وتسعون حرفا⁴.

¹ ينظر: باب "عمل الحروف ومعانيها"، من النكت الحسان في شرح غاية الإحسان، ص286 وما بعدها.

² ينظر مثلاً: باب حروف الجر سوى المستثنى بها، من التذليل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، ج11 ص114.

³ أحمد بن عبد النور بن أحمد بن راشد يكنى أبا جعفر، والمالقي نسبة إلى مالقة، برع في العربية وكانت جلّ بضاعته؛ وشارك في علوم منها المنطق، وعروض الشعر، وفرائض العبادات من الفقه، وقرض الشعر. تنقل بين حواضر الأندلس العلمية مالقة وسبتة وألمرية وبرجة وغرناطة، من مصنفات: "الخليّة في ذكر البسملة والتصلية"، وكتاب "رصف المباني في شرح حروف المعاني"، وتوفي رحمه الله تعالى بالمرية يوم الثلاثاء 702هـ. ينظر ترجمته في: الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب، ج1 من ص77 إلى ص80. وهي أصل ترجمته.

⁴ ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني، للمالقي، ص97 و98 و99.

- الجني الداني في حروف المعاني، للمرادي (ت749هـ)

الكتاب الثاني هو لأحد تلاميذ أبي حيان الأندلسي، وهو بدر الدين الحسن المرادي¹، وأما كتابه فقد سماه بـ"الجني الداني في حروف المعاني"، وذلك بعد أن يسره وقربه لجانيه، وجاء في مقدمة وخمسة أبواب؛ أما المقدمة فجعلها خمسة فصول، أولها في حد الحرف، والثاني في علة تسميته، والثالث، في جملة معانيه وأقسامه، والرابع في تقسيمه باعتبار العمل من عدمه، وآخر هذه الفصول خصصه لعدة الحروف².

ونظر إلى بنية الحرف وعدد حروف فقسم كتابه إلى خمسة أبواب، جعل الأول للأحادية والتي بلغة عنده أربعة عشر حرفاً، وخصص الثاني للثنائية وهي ثلاثة وثلاثون، وصرف الحديث في الثالث عن الثلاثية وهي ستة وثلاثون، ثم الرابع للرباعية وجملتها تسعة عشر، وآخرها الخامس للخماسية وهي ثلاثة أحرف. يذكر الخلاف في حرفية بعضها، ويتناولها بالشرح ويأتي بالشواهد على المعاني المختارة³.

ويظهر للنظر في الجني الداني تأثره برصف المباني من خلال المباحث التي درسها في مقدمته وتقسيمه للحروف، كما يظهر تأثيره على ابن هشام في المغني تأثراً بيّناً ناصعاً، يقول حاجي خليفة معلقاً عليه: «الجني الداني، في حروف المعاني... وهو كتاب مفيد... وهو مأخذ المغني لابن هشام»⁴.

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري (ت761هـ)

ثالث الكتب المختارة، أولها نشر، أذيعها صيتاً، وأشهرها مؤلفاً، فمصنفه جمال الدين عبد الله بن هشام⁵، وقد خلف من وراءه تصانيف دلة على أزمته⁶، بدر تمامها "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"،

¹ بدر الدين الحسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي أصوله من حاضرة المحيط آسفي، انتقلت أسرته إلى مصر، وبها كانت ولادته، برع في القراءات والنحو واللغة والفقه، الفقيه البار، من مصنفاته: شرح المفصل، لجار الله الزمخشري، وشرح التسهيل لابن مالك، وشرح الألفية له كذلك، وجمع بين العلم والعمل. توفي رحمه الله تعالى يوم عيد الفطر سنة 749هـ. ينظر ترجمته في: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، ج 1 ص 517.

² ينظر: الجني الداني في حروف المعاني، ص 19.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 29.

⁴ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، ج 1 ص 607.

⁵ جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام المصري الأنصاري، النحوي الذي برز في سماء العربية حتى صاروا يفاضلون بينه وبين سيبويه، وتوفي رحمه الله تعالى سنة 761هـ. ينظر ترجمته في: الدرر الكامنة، لابن حجر العسقلاني، ج 3 ص 94، بغية الوعاة، للسيوطي، ج 2 ص 68.

⁶ منها "أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك"، و"رفع الخصاصة عن قراء الخلاصة"، و"حواشي الألفية"، و"الإعراب عن قواعد الإعراب"، و"قطر الندى"، وشرحه، و"الجامع الصغير" في النحو على ترتيب الألفية، و"شذور الذهب"، و"نزهة الطرف في علم الصرف" ينظر: ابن هشام الأنصاري آثاره، ومذهبه النحوي، لعلي فودة نيل. فقد جمع مؤلفه آثاره المطبوعة والمخطوطة والمنسوبة له، والمفقودة.

هذا الكتاب الذي تلقتة الأمة بالقبول الحسن، ورزق السعادة في الشرق والغرق، ودونك شهادة ابن خلدون في الكتاب وصاحبه¹.

فهو من أهم المؤلفات في حروف المعاني، وإن لم يجزده ابن هشام لهذا الغرض، بل ضم إليه أبواباً من النحو²، ولكن نصفه الأهم من الكتاب صرفه لتفسير المفردات وذكر أحكامها، ويقصد بالمفردات الحروف وما تضمن معناها من الأسماء كـ "أي" و "من" و "ما"، والظروف مثل "إذا" و "إذاً" و "متى"، وذكر قلة من الأسماء التي ليست متضمنة لمعنى الحروف ولا الظروف مثل "كل" و "كلا" و "كلتا"، وأفعالا مثل "حاشا" و "خلا"³.

- المؤلفات المعاصرة التي اهتمت بحروف المعاني

أولى المعاصرون حروف المعاني اهتماما بالغا، ودرسوا ظواهر مختلفة للحروف، سواء من حيث الصوت أو الدلالة أو النحو، كما عرف العصر الحديث ظهور معاجم خاصة بالحرف⁴، ومن أهم هذه الدراسات والتي لها صلة مباشرة بالقرآن الكريم :

- "دراسات لأسلوب القرآن الكريم"، محمد عبد الخالق عضيمة

فقد خصص مؤلفه ثلاثة أجزاء الأولى لدراسة حروف المعاني، وهي دراسة مفيدة مقصدها الجمع والنقد، والتنظير والتطبيق، يقول المؤلف عن منهجه: «أما في دراسة حروف المعاني فكنت أبدأ بقراءة ما ذكره النحويون عن الحرف مبتدئاً بكتاب سيبويه ومنتهاً بابن هشام. وأجمع النصوص، ثم أرجع إلى كتب التفسير والإعراب في آيات كل حرف آية آية وأجمع نصوصها أيضاً ثم أنعم النظر في آيات كل حرف وما فيه من قراءات، وأسجل الظواهر اللغوية والنحوية على ضوء ما جمعته من النصوص...»⁵

أما طريقة عرضه فقد كان يقدم أمام كل حرف صورة واضحة موجزة لعناصر الدراسة التفصيلية، عنوانها بـ "لمحات"، اقتفاء لأثر النشرات الإخبارية في موجز أنبائها، لكي تكون قريبة لنفوس القراء على

¹ قال ابن خلدون: «ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها... فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة، ووفور بضاعته منها... فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته وإطلاعه. والله يزيد في الخلق ما يشاء» مقدمة ابن خلدون، ج 1 ص 755.

² ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام ص 12 و 13.

³ ينظر: شرح الدماميني على مغني اللبيب، لأبي بكر الدماميني، ج 1 ص 39 و 41.

⁴ ينظر: معجم حروف المعاني في القرآن الكريم، لحسن الشريف، ج 1 ص "ث" من التمهيد.

⁵ دراسات لأسلوب القرآن الكريم، لمحمد عبد الخالق عضيمة، ج 1 ص 4 و 5.

اختلاف درجاتهم الثقافية، ولكي تمنحه حرية نقل النصوص في الدراسات التفصيلية، إذ يعتبر أن البحوث النحوية إن لم تُخشد بنصوص تبقى كلاماً إنشائياً أجوف لا غناء فيه¹.

- "معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم - تكملة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم"-،
لإسماعيل أحمد عمايرة، وعبد الحميد مصطفى السير.

هو كما جاء في عنوانه الفرعي تكملة "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم" الذي وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، حيث فهرس للأسماء الصريحة والأفعال، وبعض الأدوات، أما عمل المؤلفين فهو تتممة له، فقد جعل القسم الأول للأدوات والثاني للضمائر، وقبله فهرسة لأوائل السور التي تبدأ بالحروف يذكران فيها الحرف وعدد وروده، والسور التي جاء فيها²، وقد قدما في مقدمة المعجم بياناً تاماً لمنهجهما ومفاتيح لتيسير الولوج إليه³.

- معجم حروف المعاني في القرآن الكريم: مفهوم شامل مع تحديد دلالة الأدوات، محمد حسن الشريف

ولأن إن كان "معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم"، لإسماعيل أحمد عمايرة، وعبد الحميد مصطفى السير السالف الذكر فهرسة وحسب، فإن معجم حروف المعاني في القرآن الكريم، لمحمد حسن الشريف جمع بين الفهرسة والدراسة، وقد قدم له بتمهيد مهم ذكر فيه مفهوم الحرف وتطور الدلالي للمصطلح، ثم مفهوم حروف المعاني وتقسيماتها ودوره وأهم المصنفات فيها، وأما الحروف فيقدم لها بتعريف موجز ثم يذكر مكان ورودها في القرآن حسب ترتيب المصحف، وهو لا يهتم بذكر الخلافات في معاني الحروف وإنما يحتار رأياً يظهر له رجحانه، ويستعمل رموزاً مساعدة بينها في صدر كل حرف بعد تعريفه⁴.

¹ المصدر نفسه، ج 1 ص 15.

² معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم، لإسماعيل عمايرة، وعبد الحميد السير، ص "ي".

³ ينظر: المصدر نفسه، ص "و" و "ز" و "ح"، من المقدمة.

⁴ ينظر على سبيل التمثيل، همزة الاستفهام من باب همزة، ج 1 ص 74 و 75.

2- المعاجم العامة

لَبَّتْ اختيارات أبي حيان لمعاجم اللغة حاجة المستقبل على التفسير، وذلك لتنوعها واختلاف مشاربها، فمنها معاجم الموضوعات ومعاجم الحروف، ومنها المشرقي ومنها المغربي، ومنها المبتكر ومنها مقتفي الأثر، وكل أولئك سأنبه عليه أثناء التناول.

الكتاب الأول : العالم في اللغة، لأحمد بن أبان بن سيّد الأندلسي (ت382هـ)

باكورة المؤلفات اللغوية التي ذكرها أبو حيان كتاب أحمد بن أبان بن سيد الأندلسي¹. واسم الكتاب: "العالم في اللغة" ويُعتبر أحد أهم المعاجم الموضوعية² التي تتناول بالدرس موضوعات متعددة، وأجمع كل من ترجم له أن الكتاب في مائة مجلد مرتبة على الأجناس، مبتدئاً بالفلك ومنتهاً بالذرة. ولم أقف على معلومات بخصوص وجوده بين المخطوطات فضلاً عن المطبوعات، سوى معلومة يتيمة ذكرها المقري (ت1041هـ) كونه رأى بعضه بفاس³.

الكتاب الثاني: تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد الأزهري (ت370هـ)

ثنى أبو حيان بذكر كتاب أبي منصور محمد بن أحمد بن طلحة الهروي الأزهري⁴ رحل وطاف في أرض العرب في طلب اللغة فأخذها مشافهة عنهم⁵، الأمر الذي جعله ييز أقرانه ويفكر في تدوين كتاب في اللغة؛ يقول عن أسباب تأليف معجمه: « منها تقييد نكت حفظتها ووعيتها من أفواه العرب الذين شاهدتهم وأقمت بين ظهرانهم سُنيّات، إذ كان ما أثبتته كثير من أئمة اللغة في الكتب التي ألفوها والنوادر التي جمعوها لا ينوب مناب المشاهدة، ولا يقوم مقام الدربة والعادة»⁶.

¹ العالم اللغوي صاحب الشرطة بقرطبة، عرف بإتقانه للغة العربية وآدابها واشتهر بسرعة الكتابة ودقتها، أخذ العلم عن أبرز علماء عصره مثل أبي علي القالي (ت356هـ) وغيره، توفي سنة 382هـ. ينظر ترجمته في : جذوة المقتبس، للحميدي، ص118، والصلة، لابن بشكوال، ص14، وبغية الملتبس، لضي، ص170.

² معاجم الموضوعات هي التي نظرت في ترتيبها إلى المعاني والموضوعات، كانت في بدء الأمر تتناول موضوع واحد مثل كتب خلق الإنسان، وكتب خلق الفرس، ثم صارت تجمع شتى الموضوعات، ومن مسمياتها: كتب الصفات، والغريب المصنف، ومدرسة المعاني، وتسمى كذلك مدرسة أبي عبيد (ت224هـ) نسبةً إليه باعتبار ريادته فيها من خلال كتابه " الغريب المصنف". ينظر: المعجم العربي: نشأته وتطوره: ج1 ص165، مقدمة الصحاح ص92 و93، ومعجم المعاجم، لأحمد الشوقوي إقبال، ص93.

³ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري: ج3 ص381.

⁴ الإمام اللغوي الشافعي، روى عن أبي الفضل محمد بن أبي جعفر المنذري اللغوي وأدرك به أبا بكر ابن دريد ولم يرو عنه شيئاً، وأخذ عن نفطويه وعن ابن السراج النحوي. ينظر ترجمته في : ، ونزهة الألباء، 238، ومعجم الأدباء، لياقوت الحموي، ج5 ص231. وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج4 ص344، وطبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، ج3 ص63.

⁵ من الطرائف أن الأزهري أكثر إفادته اللغوية كانت مدة أسره في أيدي القرامطة، يحكي ذلك عن نفسه فيقول: «وكننت امتحننت بالإسار سنة عارضت القرامطة الحاج بالهبير، وكان القوم الذين وقعت في سهمهم عرباً... يتكلمون بطلاعهم البدوية وقرائحهم التي اعتادوها، ولا يكاد يقع في منطقتهم لحن أو خطأ فاحش، فبقيت في إسارهم دهرًا طويلاً» تهذيب اللغة، ج1 ص8.

⁶ تهذيب اللغة، للأزهري، ج1 ص7.

ومعجمه "تهذيب اللغة" موسوعة لغوية، غرضه من تأليفها تنقية اللغة من الشوائب وإثبات ما سمعه بنفسه من الأعراب، ونصح الأمة وخدمة الدين كتاباً وسنة. شرطه صحة السماع عن العرب، أو الرواية عن الثقات، أو النقل عن خطوط العلماء بشرط موافقتها لمعرفته. وسلك مسلك معاجم الحروف¹، فرتب الحروف على المخارج، وقسم المعجم إلى كتب، متبعا في التقسيم منهج الخليل في العين²، لا يخرج عنه البتة من حيث الترتيب والنظام، ويفوقه في إيراد المواد وكثرتها وتفسيرها ووفرة الشواهد القرآنية والحديثية وعنايته بالقراءات القرآنية³.

الكتاب الثالث: المَوْعَب، لأبي غالب تمام بن التَّيَّانِي (ت436هـ)

ثالث كتاب ذكره أبو حيان معجم أبي غالب تمام بن التَّيَّانِي⁴، "المَوْعَب" بفتح العين، وقد وقع خلاف في تسميته فقد وسم بتنقيح العين وتلقيح العين⁵، وقد ألفه صاحبه رغبة في استراك الخلل الذي تركه مختصر الزبيدي على كتاب العين للخليل الذي سماه الاستدراك على كتاب العين⁶، فألف أبو غالب "المَوْعَب" الذي أتى فيه بما في العين مضيفاً إليه زيادات ابن دريد في جمهرة اللغة فجاء الكتاب جمَّ الفائدة جامعاً لهما - العين والجمهرة⁷ -، ولم يؤلف مثله اختصاراً أو إكثاراً⁸. وهو من المعاجم التي ألفت على نظام التقفية.

¹ معاجم الحروف ثلاثة مسالك: * المسلك الأول: ما بني على نظام المخارج: ترتب فيه الحروف بحسب المخارج.

* المسلك الثاني: ما بني على نظام التقفية: ترتيبها في هذا النظام وفق نماياتها، فمن أراد مثلاً الوقوف على لفظ (بدأ) تطلبه في حرف الهمزة، غايتها التيسير للساجعين والناظمين الكلام، وكذا تسهيل البحث على من قليل البضاعة في التصريف لا يفرق بين الحروف الأصول والحروف الزوائد. * المسلك الثالث: ما بني على نظام الألفباء ترتيبها على الألفباء: بدءاً بما أوله همزة، فما أوله باء موحدة، فما أوله تاء مثناة، فما أوله ثاء مثناة، فثال مهمل، ثم ذال معجمة، فلهم جراً إلى الباء آخر الحروف في ترتيب الألفباء، والهدف التيسير كون هذا الترتيب يعلمه الخاصة والعامة. ينظر: معجم المعاجم، للشرقاوي إقبال، ص216 و242.

² منهج الخليل في العين: رتب الخليل الحروف حسب المخارج، وجعل كل كتاب قائم على حرف من حروف الهجاء، ومقسم إلى أربعة أبواب: الثنائي المضاعف، والثلاثي الصحيح، واللفيف، وجعل الباب الرابع للرباعي والخماسي. ينظر: مقدمة الصحاح، لأحمد عبد الغفور عطار، ص97

³ ينظر: المعجم العربي نشأته وتطوره، لحسين نصار ج1 ص261 و275 و279.

⁴ أبي غالب تمام بن غالب بن عمر المعروف بابن التَّيَّانِي من أهل قرطبة، سكن مرسية. كان إماماً في اللغة ثقة فيها، عرف بالديانة والعفة والورع إلى جانب العلم وضبط لسان العرب، روى عن أبيه غالب بن عمر وأبي بكر الزبيدي وغيرهما. توفي سنة 436هـ بالميرية. ترجم له الحميدي في جذوة المقتبس، ص183، وابن بشكوال في الصلة، ص122، والضبي في البغية، ص252.

⁵ ينظر: فهرسة ابن خير، ص441.

⁶ ينظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج2 ص1443

⁷ ولذلك ذكره حسين نصار في موضعين، الأول ضمن دراسات حول العين، الثاني مع الدراسات حول الجمهرة: ينظر المعجم العربي وتطوره: ج1 ص236، وج2 ص339.

⁸ ينظر: جذوة المقتبس، للحميدي، ص183.

ولم يقتصر الخلاف في تسمية الكتاب وإنما وقع في منهج تأليفه، فحسين نصار جعله من الدراسات حول كتاب العين التي رأت فيه نقصاً فأرادت تكميله¹، وعبد العلي الودغيري استدرك على نفسه جعله من المؤلفات الأندلسية المؤلفة على طريق العين والدائرة في فلكه²، وسبب ذلك أن هذه الاستنتاجات جاءت بناء على نص نقله السيوطي في المزهري عن أبي الحسن الشاري³، الذي يوحى أن الموعب ما هو إلى تهذيب لكتاب العين أو مختصره للزبيدي، ولم يتناول الترتيب والتبويب وإنما اقتصر على تحقيق مادة الكتاب والتثبت من صحة الألفاظ والشواهد. ولكن ظهور مقال الأب انستاس الكرمللي بعنوان: "الموعب معجم بديع فقد فوجد"⁴، جعل الودغيري يصل إلى أن أبا غالب رتب كتابه حسب الأوزان المختلفة للأفعال والأسماء مقسماً إياها إلى أبواب حسب ترتيب الحروف الهجائية العربية العادية (أ - ب - ت - ث - ج - ح - ... الخ)، مراعيًا في ذلك الحرف الأخير ثم الأول، حسب منهج الصحاح والقاموس⁵.

ورغم قيمته وثناء العلماء عليه فلم يكتب لهذا المعجم السعادة والاحتفاء بين الناس قديماً فطاله التهميش والنسيان⁶، حتى كاد يرى النور في العصر الحديث مع الأب انستاس الكرمللي الذي عثر على نسخة كاملة، وعقد العزم على نشر الكتاب حال توفر نسخة أخرى مساعدة، غير أن ذلك الأمل لم يتحقق، فمات الرجل، ولحق الكتاب النسيان إن لم أقل الضياع⁷.

الكتاب الرابع: المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن سيده (ت458هـ)

من أهم المعاجم التي ذكرها أبو حيان كتاب إمام اللغة، وأعلم أهل الأندلس في زمانه بها وبالنحو والأشعار، أبي الحسن علي بن أحمد المعروف بن سيده⁸، وكتابه "المحكم والمحيط الأعظم في اللغة"⁹

¹ ينظر: المعجم العربي نشأته وتطوره، لحسين نصار، ج 1 ص 236.

² ينظر: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري ص 62.

³ ينظر: المزهري في اللغة، للسيوطي، ج 1 ص 69.

⁴ ينظر: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري ص 64.

⁵ المصدر نفسه، ص 66.

⁶ ينظر: المزهري في اللغة، للسيوطي، ج 1 ص 69.

⁷ ينظر: المعجم العربي بالأندلس، عبد العلي الودغيري ص 64.

⁸ أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بن سيده، من حفاظ الأمة، حفظ الغريب المصنف لأبي عبيد (ت224هـ)، وإصلاح المنطق لابن السكيت (ت244هـ) وغيرهما كثير، الشاعر المكثر صاحب التأليف الحسان، خادم المعجم العربي بالحسينين، وذلك بالتأليف حسب الموضوعات من خلال "المخصص"، والتأليف حسب الحروف من خلال "المحكم"، توفي سنة 458هـ.

⁹ يقول ابن سيده: «هذا جميع ما اشتمل عليه "المحكم" وهو في الصناعة "المحيط الأعظم"، ج 1 ص 139.

ويسمى اختصاراً "المحكم"، من معاجم الحروف التي سلكت مهيع العين¹، فرتب الحروف بحسب ترتيب الخليل، وقسم كل حرف إلى أبواب مستفيداً من ترتيب الزبيدي في مختصره على العين.

وأهم مميزات "المحكم" عن غيره التنظيم داخل المواد، وجمع ما تفرق في كتب العين للخليل والجمهرة لابن دريد والبارع للقاللي، جمع استقصاء لا جمع انتقاء، والاختصار في العبارة وتجنب التكرار وحذف ما لا حاجة له، ما يدل على علو كعبه في الصرف والنحو والعروض والقوافي، ولذلك اشترط على الراغب في الإحاطة بكتابه التضلع بهذه العلوم فقال: «وليست الإحاطة بعلم كتابنا هذا، إلا لمن مهر بصناعة الإعراب، وتقدم في علم العروض والقوافي»²، وبهذا يكون المحكم خطأ بالمعاجم العربية خطوة مهم، وأثر في من بعده بين مختصر وناقد، وجامع بينه وبين غيره، ومعتمد عليه في تأليف معجمه. وهو مطبوع بتحقيق عبد الحميد هندراوي.

الكتاب الخامس: جامع اللغة، لأبي عبد الله القيرواني القزاز (ت 412 هـ)

من المعاجم التي ذكرها أبو حيان كتاب أبي عبد الله محمد القيرواني بالقزاز³، ومعجمه "جامع اللغة"⁴ أو "الجامع في اللغة"⁵ أثنى عليه كل من ترجم له وجعلوه من مصاف التهذيب للأزهري، قال ياقوت الحموي: «وهو جامع كتاب "الجامع في اللغة" وهو كتاب كبير حسن متقن يقارب كتاب التهذيب لأبي

¹ ينظر: مقدمة المحكم والمحيط الأعظم، ج 1 من ص 125 إلى ص 142، المعجم العربي نشأته وتطوره، لحسين نصار ج 1 من ص 287 إلى ص 303، وهي دراسة مستفيضة أفاد منها غيره مثل عبد العلي الودغيري في المعجم العربي بالأندلس، ص 55 و 56 و 57، وأحمد الشرقاوي إقبال في معجم المعاجم، ص 201 و 202 و 203.

² المحكم والمحيط الأعظم، ج 1 ص 14.

³ أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القيرواني المعروف بالقزاز نسبة إلى عمّل القَزَّ وبيعه، غلب عليه علم النحو واللغة، وله شعر رقيق لطيف، ذا مكانة سامقة عند الملوك والعلماء، محبوب عند العامة والخاصة من الناس، ألف تصانيفاً ملاحاً لاقت ترحيباً وقبولاً شرقاً وغرباً، منها "كتاب الحروف" موضوعه حروف المعاني حيث جمع ما تفرق من كتب النحاة قبله حول الموضوع، ومنها "ما يجوز للشاعر في الضرورة"، توفي سنة 412 هـ. ينظر ترجمته: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، ص 365، ومعجم الأدباء، للحموي، ج 6 ص 475، وإنباه الرواة، للقطعي، ج 3 ص 84، ووفيات الأعيان، لابن خلكان، ج 4 ص 374، وغيرها كثير.

⁴ اختار هذا الاسم ودافع عنه أحمد بن عواد بن سلامة الشمري في دراسته له، وقدم أدلة على اختياره منها: 1- أنه ذكر به عند المتقدمين مثل: القاضي عياض (ت 544 هـ)، وابن دقيق العيد (ت 702 هـ) وغيرها، 2- أنه على المنوال نفسه في التسمية مع علماء زمانه مثل تهذيب اللغة، وصحاح العربية، دون إضافة "في"، ينظر: جامع اللغة للقزاز القيرواني (ت 412 هـ) دراسة معجم، لأحمد بن عواد بن سلامة الشمري، من ص 28 إلى ص 35.

⁵ طبعت قطعة منه بهذا الاسم "الجامع في اللغة قطعة من معجم مفقود"، تحقيق: أنور صباح محمد. وناقشه في هذه التسمية أحمد بن عواد بن سلامة الشمري في الدراسة السابقة.

منصور الأزهري رتبته على حروف المعجم»¹، ونقل السيوطي في المزهر: «قال أبو الحسن الشاري² في فهرسته: مالو - الناس - إلى جمهرة ابن دريد، ومحكم ابن سيده، وجامع القزاز، وصحاح الجوهري»³. ورغم هذه المكانة العلية للكتاب التي تُستنبط من هذه النقول، فقد لحقه التهميش والنسيان ويعتبر من عداد المفقودات سوى قطعة صغيرة منه من أواخر حرف الباء طبعة بتحقيق أنور صباح محمد⁴، والتي تُبين أن القزاز جعل معجمه على ترتيب الألفبائية المغربية⁵.

الكتاب السادس: تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل الجوهري (393هـ)

المعجم السادس الذي انتقاه أبو حيان كتابُ ثاقبِ النظر ونافذِ البصيرة الإمام أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري⁶. وأما معجمه الذائع الصيت "تاج اللغة وصحاح العربية"، ويسمى اختصاراً "الصَّحاح" و"الصَّحاح"⁷، فقد اعتبر طفرة نوعية ولحظة محورية في تاريخ المعجم العربي، ويدل على ذلك شدة إقبال الناس عليه، والسير على نفس منواله، واقتفاء أثره، وما ذلك إلى لطريقته المبتكرة السهلة الميسرة، فقد أعرض عن طريقة العين، لوعورتها وصعوبتها على الخاصة قبل العامة، ولم يسلك سبيله.

¹ معجم الأدباء، لياقوت الحموي، ج 6 ص 475.

² أبو الحسن علي بن محمد بن علي الغافقي السبتي الشاري - نسبة إلى شارة بلدة في مرسية شرق الأندلس -، المحدث الحافظ المقرئ، ولد بسبته وقرأ القراءات على والده و يحى بن محمد الهوزني، وسمع من أبي محمد بن عبيد الله وأخذ العربية عن أبي ذر الخشني، وروى عنه أبو جعفر بن الزبير الثقفي، وأحى العلم في سبته ببناء مدرسة مليحة بها ، توفي بمالقة سنة تسع وأربعين وستمائة. ينظر ترجمته في: صلة الصلة، لابن الزبير، ج 3 ص 314 التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبار، ج 3 ص 251، غاية النهاية، لابن الجزري، ص 256، سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج 23 ص 275.

³ المزهر في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطي، ج 1 ص 88.

⁴ القطعة المحققة تتكون من خمسة عشر جذراً أول (ب ي ت) والآخر (ب ي ي)، طبعة المعهد المخطوطات العربية، النشر الرقمي باعتماد المعهد، السلسلة المحكمة 22.

⁵ ترتيب الألفبائية المغربية : أ-ب-ت-ث-ج-ح-خ-د-ذ-ر-ز-ط-ظ-ك-ل-م-ث-ص-ض-ع-غ-ف-ق-س-ش-ه-و-ي. وهي توافق الألفبائية المشرقية في ترتيب أحد عشر حرفاً الأولى (من أ إلى ز) وكذلك ثلاثة حروف الأخيرة (ه-و-ي)، وتخالفاً في ترتيب الأربعة عشر حرفاً المتبقية، فترتيب المشاركة للحروف المتبقية بين "ز" و "هـ" هو: (س-ش-ص-ض-ط-ظ-ع-غ-ف-ق-ك-ل-م-ن)، ينظر المعجم العربي بين الماضي والحاضر، لعبدنان الخطيب، ص 22 و 23.

⁶ أعجوبة الزمان ذكاء وفطنة، أصله من بلاد الأتراك من فاراب، ومقدم في اللغة والآداب، مضرب المثل في حسن الخط وفارس في الكلام، كثير الترحال بين عواصم العلم، رحل إلى العراق وأفاد من علمين لغويين أبي علي الفارسي (ت 356 هـ) وأبي سعيد الصيرفي (ت 366 هـ)، ورحل إلى الحجاز وعاش بين العرب يأخذ اللسان مشافهة وتطبيقاً بعد أن ضبطه دراسة وتنظيراً، توفي بنيسابور ضريبة وسوسة أو فرط ذكاء أو سبق زمان، وذلك بسبب محاولته الطيران من فوق الجامع، وذكر في سنة وفاته 393 هـ، وقيل 398 هـ، وقيل في حدود 400 هـ. ينظر ترجمته في: يتيمة الدهر، للثعالبي، ج 2 ص 117، معجم الأدباء، للحموي، ج 2 ص 656، إنباه الرواة، للقفطي ج 1 ص 229، سير أعلام النبلاء، للذهبي ج 17 ص 80، بغية الوعاة، للسيوطي، ج 1 ص 443.

⁷ اختلف في ضبط تسميته، بين كسر الصاد وفتحها، ولم يرد عن المؤلف قول، وهو صالح للنطق بهما، وقد نقل السيوطي تعليل الضبطين: «قال أبو زكريا الخطيب التبريزي اللغوي: يقال كتاب الصَّحاح بالكسر وهو المشهور وهو صحيح كظريف وظراف. ويقال: الصَّحاح بالفتح وهو مفرد نعت كصحح وقد جاء فعال بفتح الفاء لغةً في فاعل كصحح وصحاح وشحيح وشَّاح» المزهر في اللغة وأنواعها، ج 1 ص 97. وقد أود صاحب مقدمة الصحاح اختلاف العلماء في التسمية وفي المنكرين لإحداها وبسط القول في ذلك، ينظر: مقدمة الصحاح، ص 111.

ومراعاة للخلاف وتركزت قراءته عفو الخاطر من ناسبه الفتح فتح ومن ناسبه الكسر كسر، ولا أحجر واسعا.

وإنما رتب مواد حروف معجمه باعتبار آخر الكلمة بدلا من أولها وسمّاه بابا، ثم جعل تحت الأبواب فصولا معتبرا في ذلك الترتيب الألفبائي، ويرتب الحرف الأول والثاني والثالث والرابع، ويعتمد الحروف الأصلية ويهمل الزائدة، وبهذا تخلص من الاضطراب والفوضى التي رافقت المتقدمين، وجمع صحة الألفاظ وحسن ترتيبها فقال في مقدمته: «أودعت هذا الكتاب ما صَحَّ عندي من هذه اللغة... على ترتيب لم أُسَبِّق إليه، وتهذيب لم أُغَلِّب عليه»¹. ومن أشهر من اقتدى به الصاغاني (ت650هـ) في معجماته الثلاثة: "التكملة والذيل والصلة" و"مجمع البحرين" و"العباب"، وابن منظور (ت711هـ) في "اللسان"، والفيروزيادي (ت817هـ) في "القاموس"، وغيرهم كثير وهذا دليل قاطع على مكانة المعجم العلمية وحسن ترتيبه وتنظيمه. والمعجم مطبوع بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار².

الكتاب السابع: البارع في اللغة، لأبي علي إسماعيل القالي (ت356 هـ)

وسابع الكتب لأبي علي القالي³، ومعجمه "البارع في اللغة"، يعتبر أول معجم أندلسي، رتب على حسب مخارج الحروف، على منهج الخليل وإن خالفه في أمور منها:

- ترتيب الحروف فالقالي بدأ بالهمزة عوض العين.

- الأبنية وترتيبها فهي عنده ستة وعند الخليل أربعة⁴.

ورغم ذلك لا تخرجه هذه الاختلافات من الاندراج تحت مدرسة العين، لكثرة أوجه الاتفاق بينهما قال هاشم الطعان محقق البارع: «ولكنني بعد أن حققت النص وقعت على حقيقة طريفة جديدة بالإعلان. هي أن البارع ما هو إلا كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي»⁵.

¹ تاج اللغة وصحاح العربية، مقدمة المؤلف ج 1 ص 33.

² خَلَّد أحمد عبد الغفور عطار ذكره رفقة الصحاح، وذلك من خلال خدمته ثلاث مرات متنوعة؛ أولا: بتحقيق "تهذيب الصحاح" للزنجاني (ت656 هـ) تحقيقا مشتركا مع عبد السلام هارون. ثانيا: تحقيق "الصحاح". ثالثا: تأليف "مقدمة الصحاح"، وهي مقدمة شبهها بكري شيخ أمين في مقال له بعنوان الأثر الخالد بـ"مقدمة ابن خلدون"، وحقَّق لها ذلك فهي صالحة لدارس علم المعجم العربي عامة، وللمهتم بالصحاح ومؤلفه. ينظر: الصحاح، ج 1 ص 16.

³ أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عَيَّذُون بن هارون القاليُّ ثم البغدادي أحفظ أهل زمانه للغة، وأرواهم للشعر الجاهلي، وأعلّمهم بعلوم النحو، روى عن جُلَّة من العلماء أبرزهم: الأخفش الصغير، والزجاج، وابن دريد، وابن مجاهد. ولد في بلدة ملازجرد بأرمينية وانتقل إلى الموصل، ثم بغداد ثم رحل إلى الأندلس، وفيها ألقى عصا التسيار وبزَّ الأقران، وألف وأملى، حتى وافته المنية سنة 356هـ. ينظر ترجمته في: طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي، ص 185، وتاريخ علماء الأندلس، لابن الفريسي، ج 1 ص 83، وقد أحسن صنعا محقق كتاب البارع للقالي هاشم الطعان بتتبع.

⁴ ينظر دراسة المعجم في: مقدمة الصحاح، لأحمد عبد الغفور عطار، ص 91 و97، والمعجم العربي نشأته وتطوره، لحسين نصار، ج 1 من ص 244 إلى 258، مقدمة تحقيق البارع، لهاشم الطعان، من ص 64 إلى ص 80.

⁵ البارع في اللغة، مقدمة التحقيق، ص 64.

ولعل إهمال الناس له قديماً أهم أسباب عدم وصوله إلينا تاماً كاملاً، نقل السيوطي في المزهر عن أبي الحسن الشاري (ت649هـ) قوله: « ولم يعرجوا أيضاً على بارع أبي عليّ البغدادي وموعِبُ أبي غالب بن التّياني المذكور وهما من أصحّ ما أُلّف في اللغة على حروف المعجم»¹. فالمطبوع من كتاب البارع جزء يسير حققه هاشم الطعان، عمدته في ذلك قطعتين مخطوطتين إحداهما بالمتحف البريطاني ، والأخرى بمكتبة باريس.

الكتاب الثامن: مجمع البحرين ومطلع النيرين، لرضي الدين الصاغاني (ت 650 هـ)

والمعجم الأخير الذي ذكره أبو حيان كتاب رضي الدين أبي الفضائل الحسن الصاغاني²، وكتابه "مجمع البحرين في اللغة" من المعاجم الخادمة لصحاح الجوهري، والمنضوية تحت لوائه، فالصاغاني ابتداءً أُلّف تكملة للصحاح هدَفَ من خلالها تكميل نقص الجوهري، وإيراد ما أهمله ونقد بعض الأخطاء وسماها "التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية"³.

ولما أتم تكملته نظر إليها بعين الناقد المستدرك، فشرع في معجمه الذي جمع فيه بين الصحاح للجوهري وتكملته التي من تأليفه، لأجل ذلك سمّاه: "مجمع البحرين" يقول في مقدمته: « هذا كتاب جمعت فيه بين تاج اللغة وصحاح العربية ... وبين كتاب التكملة والذيل والصلة من تأليفي، وسردت ما ذكره الجوهري أولاً على ما سرده وعلامته "ص" وأردفته ما ذكرته في التكملة وعلامته "ت" ثم أردفتهما حاشية التكملة وعلامتها "ح" وسميته كتاب "مجمع البحرين" والله ولي التوفيق»⁴.

ويمكن أن نضع سؤالاً حول سبب اختيار أبي حيان كتاب "مجمع البحرين" دون باقي معاجم الصاغاني؟ أقصد أولها زمناً "التكملة والذيل والصلة" السابق الذكر، وآخرها تأليفاً "الغالب الزاخر، واللباب الفاخر"⁵، الذي خرج به عن عباءة الصحاح واستقل بذاته فيه.

¹ المزهر في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطي، ج1 ص 88 و89.

² أبو الفضائل رضي الدين الحسن بن محمد بن الحسين بن حيدر القرشي العدوي المعروف بالصاغاني إمام الفقه الحنفي والحديث واللغة، هندي الأصل، لهوري المولد، بغدادي الوفاة، مكّي المدفن. ولد ببلهوار ونشأ بغزنة، وقدم بغداد، ثم ذهب إلى ملك الهند رسولاً من الخليفة. وقد سمع بمكة وبغداد، وإليه المنتهى في معرفة اللسان العربي، أُلّف في الحديث "مشارك الانوار في الجمع بين الصحيحين" وكتاب في الضعفاء، وفي الفرائض، وغيرها. توفي سنة 650هـ، ببغداد ونُقل إلى مكة ودفن بها تنفيذاً لوصيته. ينظر ترجمته في : معجم الأدباء، للحموي، ج3 ص1015، سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج23 ص282 الوبي بالوفيات، للصفدي، ج4 ص202. مقدمة تحقيق العباب، بقلم فير محمد حسن، من ص 4 إلى ص39.

³ طبع في ستة مجلدات بتحقيق : إبراهيم إسماعيل الأبياري، بمراجعة محمد خلف الله ، مطبعة دار الكتب القاهرة.

⁴ نقلاً عن المعجم العربي نشأته وتطوره، لحسين نصار ج2 ص408. ورجعت إلى نسخة خطية مصورة متوفرة في موقع "كتاب بديا"، الصورة السادسة.

⁵ طبع بتحقيق: فير محمد حسن المخدومي، وتركبي بن سهو العتيبي، طبعة مركز البحوث والتواصل المعرفي الرياض.

فالجواب الذي لاح للباحث هو أن أبا حيان فضّل "مجمع البحرين" على "التكملة" كونه متأخر عنها وبمثابة استراك لما فاتته فيها، أما تفضيله إياه عن "العُباب" كون مؤلفه لم يكمله. ولعل طبع الأصلين – الصحاح والتكملة – وذيوعهما، مما زهد الناس في طبع المجمع البحرين¹ وتحقيقه كاملاً.

الكتاب التاسع: الفصيح، لأبي العباس أحمد الملقب بثعلب (291 هـ)

أما الكتاب التاسع فهو كتاب أبي العباس أحمد ثعلب²، واسمه "الفصيح" أو "اختيار فصيح الكلام"، ولم يذكره أبو حيان مع أهم المؤلفات في علم اللغة³.

وذكرته مع المعاجم باعتباره من معاجم التصويب اللغوي أو لحن العامة، وهي كتب ورسائل لغوية عالجت الأخطاء التي تفشت في اللسان العربي⁴. يقول ثعلب مبينا قصده ومنهجه: «هذا كتاب اختيار فصيح الكلام، مما جرى في كلام الناس وكتبهم، منه ما فيه واحدة والناس على خلافها، فأخبرنا بصواب ذلك، ومنه ما فيه لغتان وثلاث وأكثر من ذلك فاخترنا أفصحهن، ومنه ما فيه لغتان كثرتا واستعملتا، فلم تكن إحداهما أكثر من الأخرى فأخبرنا بهما، وألفناه أبواباً، من ذلك»⁵.

وهو كتاب على نظام الأبنية لم يتبع فيه سابقيه الذين ألفوا في هذا الباب حيث كانوا يذكرون الأخطاء ويصوبونها، وإنما جنح إلى ذكر الصواب والإعراض عن الخطأ، فامتاز بالاختصار وحسن النظام⁶، فسهل حفظه، وكثر الاعتناء به شرحاً ونظماً وتهذيباً ونقداً واستدراكاً⁷، وهو مطبوع بتحقيق دكتور عاطف مدكور.

¹ والكتاب توجد منه نسخ خطية بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة، وفيض الله أفندي، وكوبريلي، وتونس، وفي باريس وجامعة بطرسبورج. ينظر معجم المعاجم، لأحمد الشرقاوي إقبال، ص 229.

² أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني البغدادي الإمام المحدث، أنحى أهل الكوفة في وقته وأحد أعلامها الكبار، كان يفاضل بينه وبين الفراء (207هـ)، شرع في التصنيف وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، فحلف مؤلفات منها "معاني القرآن" و"قواعد الشعر" و"شرح ديوان زهير" و"مجالس ثعلب"، توفي سنة 291هـ. ينظر ترجمته في: طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي، ص 141، وتاريخ بغداد ج 5 ص 414، ومعجم الأدباء، للحموي، ج 2 ص 536.

³ وإنما بدأ به الكلام عن محفوظاته، قال أبو حيان: «وقد خُفِظْتُ في صغري في علم اللغة كتاب "الفصيح" لأبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني». البحر المحيط، ج 1 ص 13.

⁴ ينظر: المعجم العربي، لحسين نصار، ج 1 ص 78، ومعجم المعاجم، لأحمد الشرقاوي إقبال، ص 66.

⁵ الفصيح، لثعلب، ص 260.

⁶ ينظر: المعجم العربي نشأته وتطوره، ج 1 ص 83 و 84.

⁷ من شروحه: "شرح الفصيح"، للمرزوقي (421هـ)، ومن نظمه أبو الحكم السبتي (699هـ) في "موطأة الفصيح"، ورام الهروي (433هـ) تحذيه في "تحذيب الفصيح"، ونقده الزجاج (311هـ) في "تخطئة ثعلب في الفصيح"، واستدرك عليه أبو عمر المطرز (345هـ) في "فائت الفصيح". ينظر: معجم المعجم، لأحمد الشرقاوي إقبال، من ص 79 إلى ص 86، وقد ذكر أربعين دراسة حول الفصيح.

3- معاجم الأفعال:

اهتم علماء العربية بالأبنية ودلالاتها وتصرفاتها، وذلك كون العربية لغة اشتقاقية تصوغ للمعاني المختلفة أبنية متنوعة، فظهرت رسائل لغوية صغيرة وكبيرة تصل إلى درجة وصفها بالمعجم، حتى عُبَّت المكتبة العربية بمؤلفات عدة تسمى كتب الأبنية، وجرت هذه الكتب وفق مسلكين، المسلك الأول اهتم بأبنية الأسماء، والثاني اهتم بالأفعال. وهذا الأخير نال الحظ الأوفر من نظر العلماء واهتمامهم خاصة أهل الأندلس الذين برعوا فيه، وأثروا المكتبة العربية بمؤلفات أصول تُبْنَى عليها غيرها¹.

كان هذا تمهيد لابد منه لفهم سبب تخصيص أبي حيان معاجم الأفعال بالذكر ضمن أهم المؤلفات اللغوية، رغم أن المعاجم التي ذكرها لم تهمل الأفعال وصيغها ومعانيها. وقد ذكر أربعة مؤلفات مهمة في الباب، دلت على حسن اختياره وتمكنه من الصنعة اللغوية والنحوية والصرفية. وهذه الكتب هي:

الكتاب الأول : كتاب الأفعال، لأبي بكر محمد ابن القوطية (ت367هـ).

أول كتاب ذكره أبو حيان في هذا النوع لمؤلف من أهل القرن الرابع، وهو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز، المعروف بابن القوطية²، وأما مؤلفه فهو " كتاب الأفعال"³ ويسمى كذلك "تصاريف الأفعال"⁴، فهو فاتح الباب في التصنيف في كتب الأفعال⁵، وقد أنست شهرته الناس في ما كان قبله، واتخذته من أتى بعده أساساً وأصلاً لكتابه، مثل السرقسطي (توفي بعد 400هـ)، وابن القطاع (ت514هـ)، وهما أكبر معجميين للأفعال⁶.

وهو من كتب الأفعال التي اهتمت بصيغ خاصة، وهما "فعل وأفعَل"، وقسم ابن القوطية الكتاب ثلاثة أقسام: الأول لما فيه فعل وأفعَل، والثاني لما فيه أفعَل وحدها، والثالث لما فيه فعل وحدها. معتمداً في ترتيب الحروف على الترتيب الصوتي- ترتيب مخارج الحروف-، واضعاً تحت كل حرف الألفاظ التي

¹ ينظر: المعجم العربي نشأته وتطوره، لحسين نصار، ج1 ص143.

² من أهل قرطبة، إشبيلي الأصل، وسمع العلم بهما، وكان حافظاً لأخبار الأندلس، وعالماً بالنحو، وإماماً في اللغة متقدماً فيها على أهل عصره، وكانت أكثر كتبها تُقرأ عليه، وتؤخذ عنه. وله مؤلفات حسنة منها: "كتاب الأفعال" و"المقصور والممدود". وتوفي سنة 367هـ. ينظر ترجمته في: تاريخ علماء الأندلس، لابن الفرضي وهو تلميذ المترجم له، ج2 ص78، وجذوة المقتبس، للحميدي، ص76، ومعجم الأدباء، للحموي، ج6 ص2593.

³ هو الاسم الغالب عليه، ذكره به ابن خير في فهرسته، ص436، وطبع بهذا الاسم.

⁴ ورد بهذه التسمية في تاريخ علماء الأندلس، لابن الفرضي، ج2 ص79.

⁵ قال ابن خلكان: «وصنف الكتب المفيدة في اللغة، منها كتاب "تصاريف الأفعال" وهو الذي فتح هذا الباب». وفيات الأعيان، ج4 ص368 و369.

⁶ ينظر: المعجم العربي نشأته وتطوره، لحسين نصار، ج1 ص148.

أولها ذلك الحرف، قاصدا الاختصار من خلال حذف الأسانيد وتقليل الشواهد¹. والكتاب مطبوع بتحقيق علي فوده.

الكتاب الثاني : كتاب الأفعال، لأبي مروان عبد الملك بن طريف (ت400هـ)

وثاني الكتب المذكورة هو كتاب أبي مروان عبد الملك بن طريف²، ومصنفه "كتاب الأفعال"، وهو كتاب ذائع الصيت كان متداولاً بكثرة بين أيدي الناس كما أخبر بذلك ابن بشكوال (ت578هـ) في الصلة³، ووصفه السيوطي (ت911هـ) بالكبير في بغية الوعاة⁴. ورغم هذا التداول والشهرة فهو يعتبر من الكتب المفقودة، ولم يعلم عنها شيئاً إلى أنه تهذيب وزيادة على كتاب ابن القوطية (ت367هـ)⁵.

الكتاب الثالث : كتاب الأفعال، لسعيد بن محمد السرقسطي (ت بعد 400هـ)

وسعيد بن محمد السرقسطي⁶ أحد التلامذة الأوفياء والطلبة النجباء لابن القوطية، أما الكتاب فقد نسبته إلى المؤلف ابن بشكوال في الصلة، وابن خير في فهرسته، بهذا الاسم – كتاب الأفعال-، هو شاهد على علو قدر المؤلف في اللغة، وإمامته فيها، وكان غرضه تهذيب كتاب شيخه ابن القوطية، من خلال إعادة ترتيبه وفق ترتيب سيبويه للحروف، واستكمال النقص من خلال جعل الكتاب في صيغ الأفعال عامة دون قصرها على صيغ خاصة، ثم اجتلاب الشواهد المختلفة قرآناً وسنة وشعراً، مبيناً فضل السابق – شيخه – وألمعيته، إذ يقول: «فألف – يعني ابن القوطية - في الأفعال كتاباً حاز به قصب السبق، واستولى به على أمد الغاية، لم يتقدمه إلى مثله في هذا الفن أحد من العلماء الماضين. ولكنه رحمه الله قصد في هذا الكتاب مقصد الغاية في الاختصار، حتى أخل ذلك بتبيين كثير مما جلب من الأفعال... فلما

¹ ينظر: المعجم العربي نشأته وتطوره، لحسين نصار، ج 1 ص 145 و 146 و 147، والمعجم العربي بالأندلس، لعبد العلي الودغيري، ص 100، ومعجم المعاجم، لأحمد الشرقاوي إقبال، ص 275.

² تلميذ ابن القوطية، الأندلسي القرطبي، إمام في النحو واللغة، لم يحدد من ترجم له سنة وفاته، قال ابن بشكوال: «وتوفي في نحو الأربع مئة». ينظر ترجمته في: جذوة المقتبس، للحميدي، ص 406، والصلة، لابن بشكوال، ص 340، إنباه الرواة، للقفطي، ج 2 ص 208.

³ الصلة، لابن بشكوال، ص 340.

⁴ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، ج 2 ص 111.

⁵ قال الحميدي: «زاد في كتاب الأفعال لحمد بن عمر بن القوطية زيادات استفيدت منه، وأخذت عنه»، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، ص 406، وقال القفطي: «وله كتاب حسن في الأفعال؛ وهو كتير بأيدي الناس، هذب فيه أفعال أبي بكر ابن القوطية شيخه» إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج 2 ص 208.

⁶ أبو عثمان سعيد بن محمد المعافري القرطبي، المعروف بابن الحداد وهو من العلماء الذين لم يعرف لهم إلا تأليف واحد وهو كتاب الأفعال، وذكر ابن بشكوال أنه توفي شهيداً بعد سنة 400هـ، دون تحديد سنة معينة.

ترجم له ابن بشكوال في الصلة، ترجمة مختصرة لا تتجاوز السطرين، وهي عمدة من أتى بعده، ينظر: الصلة، لابن بشكوال، ص 209. وقد اجتهد محقق كتاب الأفعال في جمع ولم معلومات قصد إثراء ترجمة ابن الحداد في مباحث مختلفة منها البحث عن مؤلفاته، ينظر مقدمة تحقيق الكتاب بقلم المحقق: حسين محمد شرف، ج 1 ص 19 و 20.

رأيت الكتاب قد اختل من هذه الجهة مع ما رأيت من فضله... أفردت له عنايتي، وجعلت له حظاً من نظري بعد تصحيح روايتي إياه على مؤلفه رحمه الله... ورتبته على مخارج الحروف على ما اجتلب ذكرها سيبويه رحمه الله¹.

ولذلك فقد اعتبر حسين نصار بعد دراسته للكتاب، أن عمل سعيد بن محمد بن الحداد السرقسطي فيه، هو توسيع ميدان البحث حتى شمل جميع أنواع الأفعال، وأفاض في الإتيان بشواهد مختلفة التي لم يُرَ مثلها في كتاب شيخه ابن القوطية². والكتاب مطبوع بتحقيق حسين محمد شرف في خمسة أجزاء.

الكتاب الرابع : كتاب الأفعال، لأبي القاسم علي ابن القطاع (514هـ).

وآخر معاجم الأفعال ذكراً، كتاب علامة صقلية علي ابن القطاع³، ووسمه "كتاب الأفعال"، الذي نال الإشادة والثناء قديماً وحديثاً، وفضله على كتاب ابن القوطية باعتباره أعم وأشمل، قال ابن خلكان (ت681هـ): «كتاب "الأفعال" أحسن فيه كل الإحسان، وهو أجود من "الأفعال" لابن القوطية وإن كان ذلك قد سبقه إليه»⁴، ويفضل كتاب السرقسطي بالتنظيم والترتيب، قال حسين نصار (ت1439هـ): «نجد كتابه – أي ابن القطاع - وكتاب السرقسطي أكمل وأشمل كتابين وصلاً إلينا في الأفعال. وهما جديران بالشهرة التي يتمتعان بها بين معاجم العربية ويفوق هذا – أي كتاب ابن القطاع - كتاب السرقسطي في السهولة وعدم تعقد الترتيب»⁵.

ومن هذه النقول يتضح أن أبا القاسم بن القطاع جمع الأفعال كلها، ثم قسمها تقسيماً محكماً، وأكثر من إيراد الشواهد ونوعها، وغير ترتيب الأفعال حسب الترتيب الألفبائي. والكتاب مطبوع بطبعة عالم الكتب في ثلاثة أجزاء⁶.

¹ كتاب الأفعال، لأبي عثمان سعيد بن محمد المعافري السرقسطي، ج 1 ص 52 و 53 و 54.

² المعجم العربي نشأته وتطوره، لحسين نصار، ج 1 ص 151.

³ أبو القاسم علي بن جعفر بن علي السعدي المعروف بابن القطاع علامة صقلية، النحوي اللغوي الأديب، الصقلي المولد والنشأة، ثم المصري الدار والوفاة، نزل مصر بعد قرب سقوط صقلية فاحتفل به أهلها، وأقام بها يُؤدّب ويُعلّم، وعليه أخذ أهلها كتاب الصحاح للجوهري، وله المؤلفات الحسان منها: "الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة" أي جزيرة صقلية، وكتاب "أبنية الأسماء والأفعال والمصادر". توفي سنة 514هـ أو 515هـ: ينظر ترجمته في: معجم الأدباء، للحموي، ج 4 ص 1669، وإنباه الرواة للقفطي، ج 2 ص 236، وفياء الأعيان، لابن خلكان، ج 3 ص 366.

⁴ وفياء الأعيان، لابن خلكان، ج 3 ص 363.

⁵ المعجم العربي نشأته وتطوره، حسين نصر، ج 1 ص 152.

⁶ المصدر نفسه، ج 1 ص 152.

المطلب الثاني: محفوظات أبي حيان الشعرية

توسل العلماء منذ زمن الصحابة بحفظ الشعر لخدمة تفاسيرهم، فابن عباس رضي الله عنه يدعو إلى التماس ما غاب عن الأفهام من معاني القرآن وغريبه من الأشعار¹، وخبره وهو يُحاجُّ ابن الأزرقي في تحديد معاني القرآن بالأشعار² نهج للعلماء مسلك التفسير اللغوي، ودلَّ على أهمية الشعر في تحديد دلالة الألفاظ والمعاني.

ولم يتخلف مفسر من المفسرين عن ارتياض هذا السبيل، فالشاهد الشعري موجود بقوة عند من ألف في معاني القرآن وغريبه³، وكذلك الحال عند أصحاب المدونات التفسيرية الكبرى⁴. وأبو حيان ليس بمعزل عن الركب الذي عني بالشاهد الشعري، فعدد الشواهد الشعرية عند أبي حيان 723 شاهدا حسب إحصاء شعاع المنصور⁵، وقد استعملها إما للاستشهاد اللغوي، أو النحوي، وغير ذلك.

ولأهمية الشعر في التفسير خاصة في الجانب اللغوي، ذكر أبو حيان محفوظاته الشعرية بعد ذكر الموضوعات في علم اللغة فقال: «وقد حَفِظْتُ في صغري في علم اللغة كتاب «الفصيح» لأبي العباس أحمد بن يحيى الشَّيباني، واللغاتِ الْمُحْتَوِي عليها دواوينُ مشاهير العرب الستة: امرئ القيس، والنابغة، وعلقمة، وزهير، وطرفة، وعنتر، وديوانُ الأَفْوهِ الأَوْدِي، لحَفْظي عن ظهر قلبٍ لهذه الدواوين. وحفظتُ كثيرا من اللغات المحتوي عليها نحو الثلث من كتاب «الحماسة»، واللغات التي تَصَمَّنَتْها قصائدُ مختارة من شعر حبيب بن أوسٍ لحَفْظي ذلك»⁶.

فباستثناء فصيح ثعلب الذي يعد من المثنور، باقي محفوظاته كلها من الشعر

¹ قال ابن عباس: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي عليهم الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعوا إلى ديوانها فالتمسوا معرفة ذلك منه»، وقال أيضا: «إذا أعيتكم العربية في القرآن فالتمسوها في الشعر فإنه ديوان العرب» ينظر: إيضاح الوقف والابتداء، لابن الأنباري، ج 1 ص 100 و 101.

² أخرج الخيز الطبراني في المعجم الكبير ضمن "مناقب عبد الله بن عباس وأخباره"، رقم: 10597، ج 10 ص 248، وقد اهتم العلماء والباحثون بمسائل نافع ابن الأزرقي لابن عباس، وألما بها إلمامات شتى، رواية مثل الطبراني في "معجمه" وابن الأنباري في "إيضاح الوقف والابتداء"، ودرسوه بيانيا مثل دراسة بنت الشاطئ "الإعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع بن الأزرقي"، ودرسوا لغته مثل دراسة: "شواهد القرآن"، لأبي تراب الظاهري، وغيرها. ينظر: الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم، لعبد الرحمن الشهري، ص 255 وما بعدها.

³ بلغت 785 شاهدا عند الفراء في معانيه، و 477 شاهدا عند الراغب في مفردات ألفاظ القرآن، حسب إحصاء عبد الرحمن الشهري، ينظر جدول إحصاء الشواهد الشعرية عند أصحاب معاني القرآن وغريبه في "الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم"، لعبد الرحمن الشهري، ص 682.

⁴ أمثال الطبري الذي بلغت شواهد الشعرية 2260 شاهدا، و شاهد 901 عند الزمخشري، و 1981 شاهد عند ابن عطية. ينظر: المصدر نفسه، ص 398.

⁵ أبيات النحو في تفسير البحر المحيط، لشعاع المنصور، نقلا وبواسطة "الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم"، لعبد الرحمن الشهري، ص 398. وقد ذكر إحصاء آخر لصبري السيد إبراهيم بلغت الشواهد فيه 501.

⁶ البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، ج 1 ص 13 و 14.

1- دواوينُ مشاهير العرب الستة

أول محفوظات أبي حيان دواوينُ مشاهير الشعراء العرب الستة الجاهليين، وهم الذين ذكرهم تبعاً؛ امرئ القيس، والناطقة الذبياني، وعلقمة الفحل، وزهير بن أبي سلمى، وطرفة بن العبد، وعنتر بن شداد. وقد انتقى شيخُ الأدب، وعلامة الأندلس، الأعلام الشنتمري (ت476هـ)، مختارات من شعر هؤلاء الشعراء الستة.

بلغت 125 قصيدة، وتضم 2538 بيتاً من عيون الشعر العربي في كتاب واحد¹، وهي أشعار ذات قيمة فنية رفيعة، وملئمة بالذكريات وأخبار العرب وحوادثهم، وذخيرة لغوية مهمة لطلاب العربية، يُستشهد بها على عربية الألفاظ ومدلولاتها، وأصالة الأساليب والتراكيب.

2- ديوانُ الأَفْوهِ الأَوْدِيّ

من محفوظات أبي حيان التي ذكرها ديوانُ الأَفْوهِ الأَوْدِيّ²، وشعر الأَفْوهِ الأَوْدِيّ لقي ثناء من قبل النقاد والعلماء، فعُدوا دليته من حكمة العرب وآدابها³، ومطلعها:

" معاشر ما بنوا مجدا لقومهم ... وإن بني غيرهم ما أفسدوا عادوا "

3- الثلث من كتاب «الحماسة»

من المحفوظات التي أثرت المادة اللغوية لأبي حيان اختيارات أبي تمام⁴، في ديوانه المشهور بـ"الحماسة"، حيث أخبر أنه يحفظ نحو ثلث لغاته.

وكتاب الحماسة اختيارات شعرية وُفِّق فيها أبو تمام، وشهد على ذلك نقاد الشعر والأدب، وأقبلوا عليه في مناح شتى، وهو أول كتاب عني بتبويب الشعر، فجعل كتابه عشرة أبواب، أولها وأكثرها قطعاً شعرية الحماسة، ثم المراثي، والأدب، والنسيب، والهجاء، والأضياف والمديح، والصفات، والسير

¹ طبع بعنوان كبير: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، تحت عنوان فرعي: اختيارات من الشعر الجاهلي المختار من شعر: امرئ القيس، وعلقمة بن عبدة، والناطقة، وزهير، وطرفة، وعنتر العيسى، اختيارات العلامة يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلام الشنتمري، وتحقيق: لجنة إحياء التراث العربي.

² صَلاَةُ بن عمرو بن مالك، كان غليظ الشفتين ظاهر الأسنان لأجل ذلك لقب بالأَفْوهِ، والأَوْدِيّ نسبة إلى بني أدد، شاعر جاهلي بماني، جمع الحكمة والشعر والسؤدد. من أقدم الشعراء الذين احتفظ الرواة بشعرهم، فقبل في سنة وفاته 570 أو 560 ميلادية.

³ ينظر: الأغاني، ج 12 ص 119، وديوان الأَفْوهِ الأَوْدِيّ، شرح وتحقيق محمد التونجي، ص 27 و 28 و 29.

⁴ أبو تمام هو حبيب بن أوس الطائي، لقبه الطائي الكبير تميزاً له عن الطائي الصغير وهو البحراني، ويلقب كذلك بالموَلَّد، شاعر المعاني والبديع، وأوحد عصره في دياحة اللفظ ونصاعة الشعر، وحسن الأسلوب، كثير الحفظ لأشعار العرب، وديوانه الحماسة دال على جمعه بين الحفظ المتنق والنقد الحسن. توفي في الموصل واختلف في سنة وفاته بين 231هـ، وقيل 232 و 233 و 228. ينظر ترجمته في: طبقات الشعراء، لابن المعتز، 252، وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج 2 ص 11،. قد أفرد السلف والخلف أبا تمام - شعره وأخباره - بالتأليف، مثل: "أخبار أبي تمام"، للصولي (ت335هـ)، و"أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره"، لنحيب محمد البهبيي (ت1992م).

والنعاس، والملح، وآخرها مذمة النساء. ولهذا فاسم الكتاب الحماسة من باب تسمية الكل بالجزء، مثل تسمية السورة من القرآن بجزء منها نحو البقرة وال عمران، وتسمية الشيء بأوله مثل صنيع الخليل حيث سمي معجمه العين لأنه أول أبوابه¹.

وهو ديوان أفاد اللغة العربية من جوانب عدة، أهمها المفردات اللغوية، والسبب في ذلك أن أبا تمام اهتم بأشعار المقلين والمجهولين من الشعراء، فبدون صنيع أبي تمام كانت أشعاره لتضيع ومعها تموت مجموعة من المفردات اللغوية. ولا يفهم من ذلك أنه أهمل شعر المشهورين، بل ذكره في مختاراته، وقد غطت اختياراته أزمنا مختلفة، فذكر شعر الجاهليين، والمخضرمين، الأمويين، والعباسيين².

وبالنظر إلى حجم ديوان الحماسة، الذي يضم 885 بيتا أو 895 بيتا على اختلاف في روايته عند شراحه³. فأبو حيان كان يحفظ تقريبا 290 بيتا، وهو يقرب من عدد أبيات باب الحماسة التي عدت 261 أو 264 بيتا.

وهو ديوان مطبوع ابتهل به العلماء قديما وحديثا. أهم شروحه وأكثرها تداولاً بين الناس شرح المرزوقي (ت421هـ)، وشرح الخطيب التبريزي (ت502هـ).

4- قصائد مختارة من شعر حبيب بن أوس (أبي تمام)

ومن محفوظات أبي حيان قصائد مختارة من شعر حبيب بن أوس أبي تمام صاحب الحماسة السالفة الذكر، وصحيح أن النقاد يقدمون اختياراته في الحماسة على شعره، يحكي شارح ديوان شعره وديوان الحماسة -، الخطيب التبريزي: «قالوا إن أبا تمام في حماسته أشعر منه في شعره»⁴، ولا جرم عليه في ذلك، فَنَدَّرَ أن تجتمع غاية الإحسان لشخص في مقصدين جليين مثل قول الشعر ونقده وحسن اختياره، قال الطائي نفسه:

« ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ... ولا المجد في كف امرئ والدرهم»⁵.

¹ شرح ديوان الحماسة، لأبي علي المرزوقي، تصدير بقلم أحمد أمين، ص3.

² ينظر: شروح حماسة أبي تمام دراسة موازنة في مناهجها وتطبيقها، لمحمد عثمان علي، ج1 ص38 و39 و40 و41.

³ جدول محمد عثمان علي أبواب الحماسة و أحصى ما تضمنته من أبيات بحسب أربع روايات لشرحها، والأعداد المذكورة في المتن لأهم شرحين، الأول للمرزوقي، والثاني للتبريزي. ينظر: شروح حماسة أبي تمام دراسة موازنة في مناهجها وتطبيقها، ص24.

⁴ ينظر: تاريخ الآداب العربية: كارل بروكلمان، ج2 ص72. ولم يشر إلى الموضوع الذي نقل منه العبارة.

⁵ ينظر: ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ج3 ص178.

ولكن ذلك لم يحط من قدر شعره بين العلماء، واحتج بعض العلماء بشعره، وإن كان مولداً نأى به الزمان عن عصر الاحتجاج¹، قال الزمخشري: «وهو - أبا تمام - وإن كان محدثاً - مولداً - لا يستشهد بشعره في اللغة، فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه. ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه بيت الحماسة، فيقتنعون بذلك لو ثوقهم بروايته وإتقانه»².

وليس بخاف المكانة السامقة لشعر أبي تمام، والفتنة الأدبية التي أوقدها شعره بين متعصب له وعليه، وبرهان ذلك الاهتمام الكبير الذي أولاه العلماء والنقاد لشعره. والذي لا خلاف عليه هو أنه خلف تركة وبقية أدبية من حيث الألفاظ وخاصة المعاني، حتى عدَّ صاحب مذهب متفرد في الشعر، وهذا ما حمل طلاب العلم على حفظ أشعاره، والعلماء على شرح ديوانه سلفاً وخلفاً³.

ولذلك خصَّه أبو حيان بالذكر في محفوظاته، ويلاحظ دقة أبي حيان في قوله قصائد مختارة من شعر حبيب بن أوس، لأن ليس كل شعره جيد⁴.

والجدير بالذكر أن أبا حيان رغم حفظه لشعر أبي تمام، وذكر شعره في تفسيره، فهو لا يعتبره حجة للاستشهاد وإنما يقوي به ويستأنس به، والدليل على ذلك إنكاره صنيع الزمخشري⁵ في الاستشهاد ببيت أبي تمام:

هُمَا أَظْلَمًا حَالِيَّ ثُمَّتْ أَجْلِيَا ... ظَلَامِيَهُمَا عَنْ وَجْهِ أَمْرَدٍ أَشْيَبِ⁶.

قال أبو حيان: «وأما ما وقع في كلام حبيب فلا يستشهد به، وقد نقد على أبي علي الفارسي الاستشهاد بقول حبيب:

¹ يتوقف زمن الاحتجاج عند حدود سنة 150هـ، قال السيوطي في الاقتراح: «نقل تغلب عن الأصمعي: ختم الشعر بإبراهيم بن هرمة وهو آخر الحجج»، الاقتراح في أصول النحو، ص122. وقد توفي بن هرمة (150هـ).

² الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، ج1 ص87.

³ شرحه: الصولي (335هـ)، أبو منصور الأزهري (370هـ)، وحسين الرافعي الخالغ (380هـ)، وأبو الريحاني الخوارزمي (440هـ)، وجزء منه المرزوقي (461هـ)، وأبو العلاء المعري (449هـ)، والخطيب التبريزي (502هـ)، وغيرهم. ينظر: مقدمة تحقيق ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، بقلم المحقق محمد عبده عزام.

⁴ قال ابن المعتز (269هـ): «لأن الرجل - أبا تمام - كثير الشعر جداً، ويقال إن له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة، وأكثر ماله جيد، والردى الذي له إنما هو شيء يستغلق لفظه فقط. فأما أن يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحسن والبدع الكثيرة فلا، وقد أنصف البحري لما سئل عنه وعن نفسه فقال: جيده خير من جيدي، وردى خير من ردي» ينظر: طبقات الشعراء، لابن المعتز، ص285 و286.

⁵ قال الزمخشري: «وأظلم: يحتمل أن يكون غير متعد وهو الظاهر، وأن يكون متعدياً منقولاً من ظلم الليل، وتشهد له قراءة يزيد بن قطيب: أظلم، على ما لم يسم فاعله. وجاء في شعر حبيب ابن أوس:

هُمَا أَظْلَمًا حَالِيَّ ثُمَّتْ أَجْلِيَا ... ظَلَامِيَهُمَا عَنْ وَجْهِ أَمْرَدٍ أَشْيَبِ». الكشف، للزمخشري، ج1 ص86

⁶ ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ج1 ص150 و151.

من كان مرعى عزمه وهمومه ... روض الأمانى لم يزل مهزولا.

وكيف يستشهد بكلام من هو مولد، وقد صنف الناس فيما وقع له من اللحن في شعره»¹.

خاتمة

وصلت إلى خاتمة هذا المقال الذي يؤمُّ بيان أهمية علم اللغة في التفسير عند أبي حيان الأندلسي من خلال خطاب مقدمة تفسيره البحر المحيط، ويمكن تدوين النتائج و الخلاصات الآتية:

- علم اللغة عند أبي حيان هو: العلم الذي يبحث في مدلولات الألفاظ القرآنية لفهم معانيها.
- اتفق العلماء سلفا وخلفا على أولية علم مفردات اللغة في التفسير، وهو منهج عبّد طريقه خبر القرآن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما.
- تتجلى له أهمية علم اللغة عند أبي حيان من خلال اعتباره أول العلوم التي يحتاج إليها المفسر، وأول خطواته المنهجية في العملية التفسيرية، ولأجل ذلك جعله داخلا في ماهية تعريف التفسير.
- أجمل أبو حيان الحديث عن مصادر حروف المعاني، من خلال الإحالة على كتب النحاة، وقد بيّن المقال إسهامات أبي حيان في الموضوع وأهم المصنفات فيه قديما وحديثا.
- تنوعت المصادر اللغوية التي ذكرها أبو حيان في مقدمته، بين معاجم الموضوعات، ومعاجم الحروف بمدارسها وأنواعها المختلفة، ومعجم التصويب اللغوي، ومعاجم للأفعال التي برز فيها علماء الغرب الإسلامي.
- من أهم مصادر الثروة اللغوية المحفوظات الشعرية، لأجل ذلك ذكرها أبو حيان في مقدمته، كون الشاهد الشعري من الآليات المساعدة لفهم كلام الله المنزل، وقد تنوعت هذه المحفوظات بين أشعار الجاهلية وصدر الإسلام، وبين ما يصلح للاحتجاج اللغوي النحوي، وما يصلح للاستئناس.

¹ البحر المحيط، لأبي حيان، ج 1 ص 254 و 255.